الحكم بما أنزل الله ... لماذا ؟

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود محمد مزروعة
عميد كلية أصول الدين والدعوة

يدور فى هذه الأيام جدل قوى حول الشريعة الإسلامية ومدى صلاحيتها للتطبيق فى المجتمعات المعاصرة للدول التى تعتبر الإسلام دينها الرسمى ، وتأخذ من أحكامه شذرات قليلة تضمها إلى قوانينها الوضعية التى تحكم بها ، كثرت هذه الشذرات أوقلت .

والدعوة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى المجتمعات المسلمة ، والاحتكام إلى الدين فى كل شيء ، دعوة قديمة وملحة ومستمرة ، ذلك لأنها التعبير الصادق الأمين عن الأمل الحقيقى الدائم لدى كل الجماهير المسلمة فى هذه المجتمعات ، بل وغير المسلمة ممن تنشد لمجتمعها العدل الرحيم ، والسلام القوى العزيز .

فهذه الدعوة إذن ليست حديثة ، ولايمكن أن تكون كذلك ولكنها اكتسبت فى السنوات الأخيرة قوة وإلحاحاً لأمور كثيرة أهمها .

أولا : حالة الانفصام التى يحياها المسلم ، والتى يسببها الحكم بغير ما أنزل الله .

فالمسلم يؤمن بدينه أقوى مايكون الإيمان ، ويثق فيه أعظم ماتكون الثقة ، ويوقن يقينا لايداخله ريب أن الإسلام هو النظام الذى به تصلح الحياة والاحياء . وأنه لاصلاح للحياة إلا بتطبيق حكم الله ، والخضوع لشريعته أفراداً وجماعات .

ولكن مع كل هذا الإيمان ، وهذه الثقة ، وذلك اليقين ، يجد المسلم

نفسه يحيا فى ظل نظم تخالف إخالفة صريحة ، بل تتناقض تناقضا واضحا مع دينه الذى يؤمن به ، ومبادئه التى يثق فيها ويعتنقها .

وهذا الأمر قد أوجد فى شخصية المسلم مايشبه الانفصام ، بمعنى أنه أوجد نوعاً من التناقض والثنائية بين المسلم والمجتمع الذى يعيش فيه ويزاول فيه شئونه الحياتية . بين مايؤمن أنه الحق ومايراه باطلا . فالمسلم يؤمن بشىء ، ويزاول فى حياته شيئا يختلف عن ذلك الذى يؤمن به وهو بذلك واقع بين تناقضين واضحين يطحنانه ليل نهار ، فالذى يؤمن به لا يطبقه والذى يطبقه لا يؤمن به . وهو يشعر أنه مقهور مغلوب على أمره فى كلتا الحالين ، فهو مجبور على أن يترك مايؤمن به ، ومقهور على أن يزاول فى حياته مالا يؤمن به ، أو مايؤمن ببطلانه .

وهذه الحالة من شأنها أن تصيب المسلم - كما ذكرنا - بما يشبه الانفصام فى الشخصية .

ولها عواقب ضارة ، ونتائج وخيمة تؤثر تأثيرا سيئا على حياة المسلم ومجتمعه .

فمن شأن هذه الحالة أن تفقد المسلم ثقته فى نفسه والمجتمع الذى يؤويه ومن شأنها أن تفقده الشعور بالمسئولية فى كل ما يأخذ من أمور الحياة ومايدع ، فهو يأخذ ما يأخذ بلا إيمان ، ويدع مايدع بلا اقتناع ، ومن شأن هذا أن يجعل تصرفاته موسومة بالتناقض والفوضى وعدم الأمانة ، وضعف الشعور بالمسئولية ، ومحاولة الخروج عـــلى النظام العام أن استطاع ذلك .

وهذه الأمراض والعلل هى الداء العضال الذى يأخذ بتلابيب مجتمعاتنا الآن . وهى مشكلة المشكلات التى تعوق تقدمنا ، وتعترض مسيرتنا ،

ونضج منها بالشكوى . وتكون اللجان تلو اللجان للبحث عن علاجات لها ومهما قلنا عن الإدارة بالأهداف أو بناء الانسان المصرى أوما إلى ذلك ، فإن أى علاج فاشل ، أوأى بناء محكوم عليه بالتداعى ؛ مالم يقم أساسا على علاج هذه المشكلة ؛ مشكلة انفصام الشخصية عند الإنسان المسلم : فى المجتمع المسلم . والتى لاعلاج لها إلا الرجوع إلى حكم الله ، والخضوع لدينه .

ثانيا : الاتجاه العالمى إلى العودة إلى الدين والتمسك به .

والناظر فى الشئون الدولية يرى هنالك اتجاهين متضادين :

الاتجاه الأول : الإلحاد المتمثل فى النزعة المادية الصرفية . والشيوعية الماركسية هى القيمة على هذا الاتجاه ، والداعية إليه . وهذا الاتجاه يتسلل إلى الأمم والشعوب متخفيا وراء الإصلاح الاقتصادى ومساندة الشعوب المتخلفة ، وتدعيم الحركات التحررية ، فإذا ماثبت أقدامه كشف عن وجهه القبيح ، وأخذ يشكك فى أديان الشعوب وعقائدها مرتكزا على العديد من عملائه وأبواقه . ولكن ما أن تكتشف الشعوب حقيقته حتى تتخلص منه : وقد حدث ذلك فى مصر منذ عهد قريب ، وحدث مثله فى الصومال ، والبلاد التى يبدو أنه قد استقر فيها ، إنما يقوم بقاؤه فيها على القهر وقتل الحريات وتكميم الأفواه ، وما أن تتخلص تلك الشعوب من قهره وجبروته وتتخلص من عملائه حتى تنبذه وتنفيه عنها إلى غير رجعة .

الاتجاه الثانى : هو العودة إلى الدين ، والتمسك به ، والاحتكام إليه ، وهذا الاتجاه من بين أسبابه أنه رد فعل للاتجاه السابق .

ويخطىء الكثيرون إذ يظنون أن النزعة الدينية ضعفت عند المتدينين مستندين فى ذلك الظن الخاطىء إلى انتشار فساد الأخلاق ، وانحلال السلوك ، وضعف الالتزام بالقيم والمبادىء ، لكن الحق عكس ذلك تماما ، فإن المتدينين تمسكوا بدينهم أكثر من ذى قبل ، فى مواجهة الإلحاد القادم من البلاد

الشيوعية . وما يوجد من أغلال فى الأخلاق والسلوك فإنما هى نزعات محدودة بحدود فئات معينة من الشباب ، وهذه النزعات لم تأت خروجا على الدين ، وإنما نشأت أساساً كنوع من التعبير عن الذات ، واحتجاجاً على بعض الأنظمة السياسية و الاجتماعية ، ونحن نعطى هذا الأمر صورة أكبر من حجمه حين ننظر إلى أى خروج على التقاليد أو الأعراف أو النظم السياسية أو الاجتماعيه ، على أنه خروج على الدين وحرب عليه ، وإذا ماخرج إنسان على المألوف من نظام الملابس أو المألوف من حلق الشعر ، اعتبرناه خارجا على الدين .

وذلك خطأ واضح ، وخلط بين ، فإن العادة ليست دينا . وثمة فرق كبير بين العادة والدين ، فقد تكون العادة خروجاً على الدين ، ويكون الخروج على العادة عوداً إلى الدين .

ونحن هنا لاندعو إلى طرح عاداتنا وتقاليدنا دون تفنيد أوتمحيص ، ولكنا نلفت النظر إلى خطأ طال الأخذ به ، ونتج عنه اتساع الفجوة بين الآباء والأبناء ، وأمر ذلك فى حاجة إلى تبصر وأناة ، وإن الناظر فى بيوت الله يجدها غاصة بشباب يعتبره الكثيرون منحلا عن عرى الدين ، لمجرد أنه خرج على عادة ، أو طرح تقليدا ، ومجتمعات الفتية والشباب فى المدارس والجامعات تتسم بسمة واضحة فى التمسك بدين الله ، والرغبة الصادقه فى الدعوة إليه وإعلاء كلمته ، ولو أحسن توجيه هذا الشباب وهؤلاء الفتية لكانوا قيادات صالحة مصلحة .

ونحن لانذكر أن هنالك فى كل مجتمع فئات منحلة لاعن ربقة المجتمع فحسب ، بل عن عرى الدين جملة وتفصيلا ، هذه الفئات تسىء إلى الدين والمجتمع على حد سواء ، لكن وجود هذه الفئات لايجب أن يخفى عنا الحقيقة الواضحة ، وهى اتجاه الجماعات والأمم إلى التمسك بدينها أكثر من ذى قبل ، وإحياء العصبيات الدينية لدى كل طائفة .

فاليهود معروف عنهم التعصب الدينى ، حتى صار من الصعب أن تفرق لديهم بين الجنس والدين معاً . وقد زاد تعصبهم وهوسهم بعد أن نجحوا فى إقامة دولتهم على أساس من ذلك التعصب والهوس

والنصارى كذلك متعصبون ، وقد زاد اتجاههم نحو التعصب الدينى ، حتى إنك لتجد الأحزاب الحاكمة فى كثير من الدول النصرانية تنسب إلى النصرانية أو المسيحية ،

فتجد الحزب الديموقراطى المسيحى ، أو الحزب الديموقراطى ، ولا أدل على تعصب الدول النصرانية لدينها — رغم ضحالته ؛ وتحوله عندعامة الناس منهم إلى مجرد تقليد يتعاطى فى مناسبات محدودة — من المخططات التى يضعونها لنشر دينهم ، والأموال الباهظة التى توقف لهذا الهدف والجهود التى يبذلونها فى محاولة القضاء على الإسلام ، وشن الحرب ضد المسلمين فى كل البلاد التى تمكنهم من ذلك ، ففى الفلبين ، والحبشة ، ولبنان وأخيراً فى عقر مصر ذاتها .

ثالثاً : إفلاس النظريات الفلسفية ، والمذاهب الخلقية ، والمدارس الاجتماعية ، واتضاح فشلها فى تقديم الحلول السليمة المقنعة لمشاكل الإنسان ليس فقط فيما يتصل بمسائل ماوراء الطبيعة ، بل فى أخص الشئون الحياتية والأمور اليومية ؛ التى تقابل الإنسان فى كل منحنى من مناحى الحياة

وهذه النظريات والمدارس والمذاهب كانت البديل الطبيعى والمقنع لدى أعداء الدين من الماديين الملحدين ، ومن سار خلفهم ، وهم الذين زعموا لأنفسهم التقدم ، والتحضر والتمدن ، إلى آخر هذه الألفاظ الجوفاء البراقة التى خدعوا بها طوائف كثيرة دهرا طويلا . وهؤلاء أخذوا على عاتقهم محاربة الدين فى كل مجال . مدعين أنه رمز للتخلف والجمود ؛ وفى مقابل حربهم للدين ، أخذوا ينتصرون إلى لكل مذهب من وضع البشر مدعين

أن ذلك هو التحضر ، والتثقف ، والتقدم ، والتمدن .

ومن وراء هؤلاء الضالين المضلين ، كان جمهور كثيف انخدع بتلك الشعارات الجوفاء ، فاندفع وراء هؤلاء رغبـــة فى أن يحظى بتلك والأوسمة ليكون فى زمرة المتقدمين المتحضرين المتمدنين ، فترك الدين وهث وراء النظريات والمذاهب ، فلا تكاد تظهر نظريه أو مذهب حتى تجد له من الأنصار والأشياع حتى قبل أن تتضح معالمها ، وتبين حدودها

ثم لا يمضى طويل زمان حتى يتضح فشل هذه النظرية أو المذاهب ، ولا يظهر فشله إلا على يد مذهب مقابل ، أو نظرية مناقضة ، وتجد المعارك الطاحنة بين أتباع هذه وأتباع تلك ، وكلهم فى طغيانهم يعمهون

(إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون) . (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) . (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) . (وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون) .

وإنك لتجد بين هذه الطوائف الضالة المضلة دعاة الشيوعية والوجودية والعلمانية ، وكل من انفصل عن دينه وعروبته منساقا إلى الغرب أو الشرق وكل من هؤلاء معلول لهواه من انسياق وراء مادة أو جهل بأمور الدين أو مكانه يسعى إليها فى مجتمع يفتح ذراعيه لدعاة الضلال والانحلال ، وهذا أو ذاك ، وهؤلاء وأولئك تجمعهم الرغبة فى الانفلات من ضوابط الدين ، والخروج على حدوده التى حددها الله ، لكى ينطلقوا بعد ذلك فى دنيا الشهوات كما تنطلق السائمة على غير هداية

ولا يختلف اثنان — حتى من دعاة الضلال والانحراف — على أن العالم يعيش أتعس وأشقى عصوره على الإطلاق فقد تسلل الخوف والقلق إلى القلوب ، وأنسل الأمان والاطمئنان منها ، حتى لقد أخمت سمة العصر

التى تميزه ، أنه عصر القلق والاضطراب العقلى والانهيارات العصبيه النفسية لاينجوا من ذلك الأفراد أو الجماعات

ومن غريب الأمور أنك تجد علاقة طردية بين هذه الأمراض والثراء المادى مما يسلط الضوء على أسباب الداء ، ويوضح فى نفس الوقت ناجح الدواء فالأمر فى هذه الأدواء لايعود إلى حاجة مادية . ولكنه ينحصر فى الخواء النفسى والفراغ العقدى ، والانحراف الخلقى ، وليس وراء ذلك كله إلا الانصراف عن دين الله - تعالى - والجرى وراء نظريات ومذاهب بشرية ، اواعتناق أديان باطلة هى من قبيل تلك النظريات والمذاهب ، أو هى أضل

رابعاً . الصورة المخزية ، والحال المحزنة ، التى آل اليها أمر المسلمين فى هذه الأيام ، فليس من شك أن المسلمين يعيشون هذه الأيام ظروفا دولية من أصعب مامر بهم ، بل لعلها أصعبها على الاطلاق ، فليس بين دفتى التاريخ ظروفا شعر فيها المسلمون بالذلة والمهانة مثل هذه الظروف التى يحياها المسلمون هذه الأيام

فعلى المستوى الخاص ، أو فى بؤرة الأحداث والمشاعر ؛ نجد شراذم اليهود الذين أذاقهم الله الذلة والمسكنة على أيدى شعوب العالم كلها بلا استثناء قد أضحت هذه الشراذم تستذل المسلمين جميعاً بلا استثناء محاولة أن تلتقم من شعوب العالم كله باستذلالها المسلمين

ويخطىء من يظن أن اليهود إنما يستذلون طائفة بعينها من المسلمين العرب احتلوا أرضها ، واستولوا على ديارها فإن اليهود يستذلون كل مسلم على وجه الأرض باستذلال اخوانه من جانب وعن طريق تدنيس مقدساته ، وهتك حرماته من جانب آخر ، وفى كل يوم لهم صولات وجولات فى تقتيل المسلمين وتخريب ديارهم فى شتى بقاع العالم الإسلامى والعربى .

وإذا كان ذلك على المستوى الخاص أو فى البؤرة ؛ فإن على الحاشية أموراً لاتقل عن ذلك ؛ بل لعلها أفجع من ذلك وأوجع . ففى كل بلاد العالم التى فيها أقليات مسلمة ، تعلن الحرب بلا هوادة على هؤلاء المسلمين وتوضع المخططات للقضاء عليهم وإبادتهم . ليس ذلك فحسب ؛ بل انه فى البلاد التى يكون المسلمون فيها أكثرية ، كثيرا ما يتغلب عليهم غير المسلمين ليحيلوهم إلى مواطنين من الدرجة الثانيه أو الثالثة

لهذه الأسباب ـ وغيرها كثير ـ ندعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، والحكم بما أنزل الله ـ تعالى ـ حتى نخرج من هذه الشقاوة والتعاسة التى يرتكس فيها العالم كله والتى ارتكسنا فيها معه . والوزر علينا نحن المسلمون فإننا نلبس الداء المستشرى فى جسد العالم كله ؛ ونعانى منه فى أجسادنا ونفوسنا ، ثم نقعد مع القاعدين ذلة واستكانة ، واستمراء لما صرنا إليه . ونداء الله يصك آذاننا وقلوبنا ليلا ونهاراً

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون).

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)

وإن الناس جميعا فى هذا البلد ليذكرون جيدا أن عهد رئيس الدولة الحالى ، قد بدأ بحركة نشطة فى إقناع الشعب بأن الرغبة قويه وراسخة فى قلب رئيس الدولة نحو تطبيق الشريعة ، وقيادة الناس بما أنزل الله وقد أرسلت الوفود الرسمية إلى شتى بقاع مصر مدنا ومراكز وقرى لاستفتاء الناس حول تطبيق شرع الله فيهم ، وقد جاءت النتائج ـ كما هو متوقع سلفا ـ إجماعا كاملا على رغبة هذا الشعب المسلم فى أن يحتكم إلى شرع الله وأن يحكم بما أنزل الله ، وانتظر الناس ، وطال بهم الانتظار حتى كاد أن يضيع من قلوبهم هذا البصيص من نور الأمل فى العودة إلى شرع الله ـ تعالى ـ والنجاة مما هم فيه من تعاسة وشقاء

وكلما أثير الموضوع أشاروا إلى تلك اللجان التى كونت بما أسموه تقنين الشريعة الإسلامية . وبمرور الزمن تحولت اللجان إلى ما يشبه التمائيل المحنطة فى متحف ما يسمى بمجلس الشعب المصرى . أو هكذا خلد فى روع الناس حتى لقد بدأ السؤال عن تلك اللجان يفقد حماسه بل فقد الناس الشعور بوجودها . وأضحت الإشارة إليها لا ترد إلا فى باب التندر والتفكه .

ولسنا نشك لحظة فى أن هذه اللجان تعوق عن قصد وعمد . وأن هذا التعويق إنما هو من قبل أولياء الأمر . ذلك أنهم حـــين أرادوا وضع ما أسموه بقانون الأحوال الشخصية . انتهوا منه بين يوم وليلة ، وأتوا ببعض بالسادة حتى كان ذلكم القانون يحكم الناس ويوجه أمورهم . ويملكهم بتلابيبهم .

وإذا ما تساءلنا : كيف حدث هذا بين يوم وليلة ؟ كانت الإجابة لدى أولياء الأمور ومن بيدهم صياغة قوانين الخلق ، وجبرهم على تنفيذها . وننادى بأعلى أصواتنا : ألا من نهضة كتلك النهضة التى أعطيت لقانون الأحوال المدنية ، ألا من نهضة كتلك ، تحيى موات اللجان الشرعية ، وتخرج ما انتهوا منه — وهو كثير وطيب — إلى الحياة يسعد الناس ، ويمسح شقاءهم ، وينظف المجتمع من الأدناس والأرجاس ؟ .

يا أيها الناس : [أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟] ولكن ماذنب الناس ؟ وليس عليهم من سبيل .

[إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الارض بغير الحق]

[الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا]

[وما الله بغافل عما يعملون]